

بواعث الالتزام الأخلاقي في الإسلام

د/ رقية طه العلواني

تمهيد

تشكل الأخلاق في الإسلام المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني التي جاء بها الوحي لتنظيم حياة الإنسان على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على الوجه الأكمل والأتم. من هنا كانت الاخلاق جوهر رسالة الإسلام، وقد حدد الرسول صلى الله عليه وسلم الغرض من بعثته بإتمام الأخلاق حين قال: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

وللأخلاق أثر كبير لم ينكره مصلح أو مجدد، فهذا "مارتن لوتر" يتحدث عن أثر الأخلاق في الأمم فيقول: "ما سعادة الأمم بكثرة أموالها ولا بقوة استحكاماتها، ولا بجمال مبانيها، وإنما سعادتها بأبنائها الذين تثقفت عقولهم، وبرجالها الذين حسنت تربيتهم واستنارت بصائرهم، واستقامت أخلاقهم، في هؤلاء سعادتها الحقة، وهم قوتها وعظمتها الجوهرية".

من هنا جاء اهتمام الأمم يترشيد الأخلاق وتهذيبها وتنمية البواعث والدوافع التي تحث عليها. وقد اهتمت الأديان السماوية قاطبة بهذه الدوافع وكرستها وجاء اهتمام الإسلام فريدا في منهجه، واقعيا في أساليبه وطرحه.

وتتناول هذه الورقة دوافع الالتزام الخلقي في الإسلام وكيفية تنميتها في ظل الظروف الراهنة التي يشهدها العالم من انفتاح وتغيرات مهولة طالت منظومة القيم والأخلاق للأمم والمجتمعات. كما تقدم الورقة بعض المقترحات والتوصيات العملية لتنمية دوافع الالتزام الخلقي في المجتمع.

أولاً: مفهوم الالتزام الأخلاقي وأهميته

تعد دراسة الالتزام الخلقى جزءاً من الدراسات الأساسية المتفرعة عن علم النفس، إذ لا يُدرس الجانب الأخلاقي فحسب بل يمتد الاهتمام إلى السلوك الخلقى لدى أفراد المجتمع، وتوضيح التأثير الكبير الذي تتركه الأخلاق على الجوانب النفسية والشخصية للفرد. فالنظام الخلقى يقوم على وسائل ضبط سلوك الفرد داخلياً، كما يقوم على الخضوع للقيم إرادياً دون إكراه¹.

وتظهر أهمية القيم الخلقية في تحقيق نوع من الاستقرار الاجتماعي، يتم فيه احترام القواعد الأخلاقية السائدة في المجتمع. فإذا ضعف الالتزام الخلقى بين أفراد المجتمع، بدأت المتاعب والاضطرابات السلوكية، وبدأ الشك بالقيم والثقافة المحلية كذلك.. حتى يصبح تحقيق الذات وحياسة الاعتراف الاجتماعي متعارضين مع احترام القواعد الأخلاقية السائدة، وعندها يكون تأثير القيم والضبط الاجتماعي قد ضعفاً كثيراً. من هنا لا يوجد مجتمع بلا ثقافة، ولا مجتمع بدون قيم، فالقيم يتوارثها أفراد المجتمع.

وقد ساهمت الأديان بشكل عام، والإسلام بوجه خاص، في تطوير المفاهيم الأخلاقية الكبرى، مثل الأخوة، والعدالة، والمساواة، وحقوق الإنسان، وحتى الحيوان، على أساس من الإلزام والالتزام.

فالإلزام هو الالتزام من الإنسان في مواجهة البشرية كلها بناء على كونه مكلفاً في هذه الحياة، وله أمانة ورسالة وله حرية الإرادة التي تحكم عمله، وتكون مناطاً للجزاء الدنيوي والأخروي كذلك، لذا كان الالتزام الأخلاقي أبرز معالم المسؤولية الفردية في الإسلام.

¹ - عبد الوهاب الحراسي، دراسة في كتب (المواد الفلسفية) الصادرة عن وزارة التربية لعام ٢٠٠٥م،

<http://www.yewriters.org/alhikmah2395.html>

وهو دعامة الأخلاق الكبرى، إذ أن زوال فكرة الإلزام يقضي على جوهر الغاية التي تحققها الأخلاق، فإذا انعدم الإلزام انعدمت المسؤولية، وإذا انعدمت المسؤولية ضاع كل أمل في وضع الحق في نصابه وإقامة القيم الأخلاقية.

وتقوم فكرة الالتزام الأخلاقي، على افتراض كون الإنسان عاقلاً وأنه اختار مبدأً سلوكياً معيناً، فعليه أن يحترم اختياره من خلال الالتزام عملياً بهذا المبدأ. الأمر الذي يحقق له التوازن والانضباط في الشخصية.

وفي تحقيق ذلك ممارسة للحرية في الاختيار - كما يقول كانت- لأن الإنسان سوف يقوم بهذا الفعل بمحض إرادته لأنه اختاره بنفسه وصمم على أن يؤديه ويلتزم به وبما يترتب عليه من مسؤوليات وتبعات: (إن الإلزام ينطوي على المسؤولية الأخلاقية ومعنى هذا أن الأفعال التي تصدر عنا إعمالاً للواجب متوقفة علينا (أي على اختيارنا الأخلاقي) ومعنى هذا بالتالي أننا من حيث كوننا كائنات أخلاقية أحراراً ويترتب على ذلك أن الحرية وثيقة الصلة بالأخلاق)².

وبناء على ذلك فإن الإلزام الخلقى الذي يفرضه الاختيار الأخلاقي يدخل في صميم ممارسة الإنسان لحرية من حيث كونه عاقلاً مسؤولاً وهذا يعني أن الاختيار الأخلاقي ينطوي على الحرية بمفهومها الأخلاقي من جهة، ومن جهة أخرى على الإلزام بوصفه الداعم لحرية الإنسان وتوازن شخصيته ويقف الضمير وراء هاتين الجهتين كضمانة داخلية تقي من الانحراف.

² - إيمانويل كانت، أسس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، ١٩٧٩، ص ٢٥.

ثانياً: بواعث الالتزام الاخلاقي في الإسلام

الأخلاق في الفكر الإسلامي سلوك إنساني يمكن تغييره وتوجيهه الوجه الصحيحة عن طريق التربية السليمة القائمة على غرس القيم والمبادئ الصحيحة التي تشكل دوافع خلق الالتزام الأخلاقي لدى الإنسان.

وقد جاء في الحديث الإشارة إلى هذا المحور الهام في الأخلاق حيث جاء عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُسَلِّمُ عَبْدٌ حَتَّى يَسَلِّمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ وَلَا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقُهُ قَالُوا وَمَا بَوَائِقُهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَالَ غَشْمُهُ وَظُلْمُهُ وَلَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا مِنْ حَرَامٍ فَيَنْفِقَ مِنْهُ فَيُبَارِكَ لَهُ فِيهِ وَلَا يَتَصَدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلَ مِنْهُ وَلَا يَتْرُكُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ إِنَّ الْخَبِيثَ لَا يَمْحُو الْخَبِيثَ. رواه أحمد.

وثمة بواعث ودوافع لهذا الالتزام في الفكر الإسلامي، تدفع الإنسان إلى الترقى بالقيم الإنسانية لتكون بعيدة عن طلب المنفعة الدنيوية من وراء الالتزام بها فحسب، بحيث تتحول إلى دوافع ذاتية.

وتسعى القيم الإسلامية إلى إحالة فكرة البدل والعوض إلى الإيمان بما يرضي الوجدان الإنساني والضمير الحي، في الحياة الدنيا أو بما يُوعَد به الإنسان في الحياة الآخرة. وهو ما تشير إليه الآية الكريمة: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} (سورة الإنسان: آية ٩).

فينتفي بهذا التطلع إلى بدلٍ ماديٍّ أو معنويٍّ دنيويٍّ. وهو السقف القيميِّ المثاليِّ الذي تسعى الأديان والحضارات إلى بلوغه.

ولئن ظلّ بلوغه في واقع المجتمع البشريّ محدوداً أو نادراً، إلا أن جميع الأديان والحضارات تتطلع إلى جعله هدفاً أسمى لوجود القيم. فالدين محرّك القيم التي باتت تُدرس في العصر الحديث، على أنّها حقائق اجتماعية تقوم على أصول سلوكية مشتركة في المجتمع³.

وقد استكمل الإسلام طرق الإلزام وأنواعها، وسلط الوازعات على عقل المؤمن ثم على قلبه وضميره، ونفسه وغرائزه وطباعه، وشمل بهذا الإلزام الكبائر والصغائر، والأخلاق والآداب، وجعل الفرد رقيياً على نفسه وعلى المجتمع، وجعل المجتمع رقيياً على الفرد كذلك.

ومن أبرز هذه البواعث على الإلزام:

الباعث الأول: الإيمان بالله

الشعور الأخلاقي في الإسلام لا يُمنح عن طريق الأوامر، ولا عن طريق استعمال القوة، والدين هنا يعتبر أكبر عامل ومنبع للأخلاق. فإذا صار الدين مجرد شعار، فإن الشعور الأخلاقي يمكن أن يضعف ويضمحل.

فالأخلاق في الإسلام تقوم على قاعدة التقوى بمعنى الاتقاء من الشر والفوضى والاساءة وقد ربط الإسلام بين مفهوم الاخلاق وبين التطبيق العملي، ورسم للناس قواعد العمل الصالح الذي ينبغي أن يسير عليها الناس استمداداً من القرآن الكريم والسنة النبوية.

جاء في الحديث: " عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا وَكَانَ يَقُولُ مِنْ حَيَارِكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا ". رواه أحمد في مسنده.

³ - موسوعة القيم ومكارم الاخلاق العربية والإسلامية، (الرياض: دار رواح، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٤٥. انظر في ذلك: بيومي، محمد أحمد، علم اجتماع القيم، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية)، (١٩٨١) ٤٠ - ٤٣، محمود، زكي نجيب، مقدمة كتاب: سانتيانا، جورج، (د.ت.)، الإحساس بالجمال: تخطيط نظرية في علم الجمال، ترجمة: محمد مصطفى بدوي، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية)، ٢٢ - ٢٣. إمانويل كانت، أسس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، ١٩٧٩، ص ٢٥.

وَعَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا. رواه الترمذي

وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على العلاقة الوثيقة بين الأخلاق والإيمان، يقول ابن تيمية رحمه الله ما خلاصته: "إذا كان الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب، وأنه لا بد فيه من شيئين: الأول تصديق بالقلب وإقراره ومعرفته وهذا هو التوحيد، وآخر عمل القلب وهو التوكل على الله وحده ونحو ذلك من حب الله ورسوله وحب ما يحب الله ورسوله وإخلاص العمل لله وحده كانت أعمال القلب من الحب والإخلاص والخشية والتوكل ونحوها داخلة في الإيمان بهذا المعنى وكانت الأخلاق الكريمة داخلة فيه".

فالإيمان بذلك هو مناط تكوين القيم الخلقية والاجتماعية ونحوها، وهو أيضا مصدر الإلزام الخلقى، لأنه هو المسيطر على كل غرائز الإنسان وشهواته، والمتحكم في أحاسيسه ودوافعه. فالإيمان قول وعمل، والأخلاق الكريمة أقوال وأفعال لا تنفك عن معنى الإيمان، فالإيمان هو البر والهدى والتقى والإسلام والبصيرة وهو أيضا العلم النافع والعمل الصالح.

والواقع أن باقي الأديان السماوية أكدت على ضرورة ارتباط الأخلاق بالدين كذلك، وهذا ما أكده الفيلسوف الألماني "فيخته" بأن الأخلاق من غير دين عبث. فالدين كالروح للأخلاق، وبعبارة أخرى: الدين يغذي الأخلاق وينميها وينعشها⁴.

والإيمان والأخلاق في الإسلام قرناء، فمن لا خلق له لا إيمان له، فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: "البر: حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس" رواه مسلم.

⁴- توفيق الواعي، الدعوة إلى الله- الرسالة- الوسيلة- الهدف، ط2، (القاهرة: دار اليقين للنشر، 1995)، ص 398

وقال أيضا: "إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وأطفهم بأهله" رواه الترمذي. فالأخلاق ثمرة الإيمان الصحيح، ولا شك أنها الغاية القصوى من العملية التربوية .

وإن بناء الأخلاق على أساس عقائدي في الإسلام، ضمان لتثبيتها واستقرارها وعدم العبث بها، وهو أمر لازم. كما عبّر عن ضرورة ذلك الشيخ محمود شلتوت بقوله (إن العقيدة دون خلق، شجرة لا ظل لها ولا ثمرة، وإن الخلق دون عقيدة ظل لشبح غير مستقر)° . ومن مميزات الخلق في الإسلام أنه:

١. عقيدة إلهية مستمدة من مصادر واضحة .
٢. فطري "والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس"
٣. قيم ثابتة لا تتغير بالأهواء .
٤. إيجابي وإلزامي - لأن وراءه قوة وازعة من تقوى الله .
٥. واقعي غير خيالي - قابل للتطبيق في الواقع بيسر وسهولة.

فالأخلاق في الإسلام لا تقوم على نظريات مذهبية، ولا مصالح فردية، ولا عوامل بيئية تتبدل وتتلون تبعاً لها، فلا يخرج المسلم إحداها إلا حدث حرق في إيمانه.

جاء في الحديث: "أَبُو هُرَيْرَةَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ". رواه مسلم في صحيحه.

وهكذا يصبح الإنسان مسؤولاً بمجرد سلوكه. وترتب على الإلزام والمسؤولية بالضرورة مبدأ الجزاء .

⁵ - محمد شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة (بيروت، دار الشروق، ١٩٩٢م).

فالقانون الأخلاقي الذي يلزمنا ، ويضعنا أمام مسؤوليتنا يجب أن ينطوي، في الوقت نفسه ، على نظام لتقدير مواقفنا ، وإذا كان بعض الحكماء قد أنكروا وجود «جزاء أخلاقي» بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة؛ فإن وجود هذا الجزاء بالفعل يدحض هذا الرأي ، ويزودنا القرآن الكريم بنوعين من هذا الجزاء: فهناك أولاً الجزاء ذو الطابع «الإصلاحى» ومعناه أن الإنسان الذي يسلك سلوكاً سيئاً يتحتم عليه إصلاح ما ترتب على هذا السلوك من فساد أو إهدار لحقوق الآخرين ، وإهمال الواجب يقابله القانون بفرض واجب آخر. هو واجب «التعويض».

وفي الإسلام لا يكفي أن يثار الشعور بتأنيب الضمير- وهو شعور داخلي يفتح طريق الإصلاح- وحده لإعادة النظام؛ بل لابد أن يدعمه موقف جديد من مواقف الإرادة، موقف يفترض بذل الجهد ويتمثل في «التوبة».

إذ تقتضى التوبة إيقاف السلوك السيء، والعزم على عدم العودة إليه ، والاستمسك من جديد بالواجب المهمل، وإصلاح الأخطاء المقترفة، واتخاذ طريق جديد للسلوك. هذا «التحوّل» الأخلاقي في سلوك الفرد تفرضه عليه الأخلاق كوسيلة إصلاحية في الإسلام.

إضافة إلى ذلك، نجد في القرآن نوعاً آخر من الجزاء ذي الطابع «الاستحقاقى» وهو ردّ فعل للقانون الأخلاقي يمارسه مباشرة وتلقائياً، ولا يسع الإنسان إلا أن يتحمّله رضي أم لم يرض. فبحسب موقفنا «الخاضع» أو «المتمرّد» بالنسبة لما يمليه علينا الواجب ، نجد أن ملكاتنا العليا تتأثر سموّاً أو انحطاطاً، ولا يعني ذلك فحسب أن ممارسة الخير تصفي القلب وتشحذ الإرادة وتقوي العزيمة ؛ بل إن صداها ينعكس أيضاً على الملكة الذهنية نفسها. وعلى العكس من ذلك نجد أن فوضى الانقياد للتروات تعتم الضمير وتحوّل العقل عن تصور الحقيقة.

ومجمل القول، أن الجزاء الأخلاقي الاستحقاقى ينتهي إلى نوع من «التقدير للذات»، ويؤدي إما إلى ارتفاع في القيمة الإنسانية وإما إلى هبوط بها .

وإذا كان الإنسان يتصرّف بجرية فمعنى ذلك أن عمله انبعث لكيانه الكامل «جسماً» و «روحاً»، ولا يخفى ما بين هذين العنصرين من صلة وثيقة وتفاعل متبادل.

الباعث الثاني: العبادة

العبادة روح أخلاقية في جوهرها لأنها أداء للواجبات الإلهية. فالعبادة في الإسلام ارتبطت جوانبها برباط أخلاقي، لتحقيق غاية أخلاقية.

وهي مفهوم واسع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، فالصلاة عبادة والصوم والحج والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبادة، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والرفق والشفقة.. كلها داخلة في مفهوم العبادة، وذلك أن العبادة هي كمال الحب مع تمام الخضوع والذل وهي الغاية التي لأجلها خلق الله الخلق، قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

فالدين كله داخل في العبادة وهي شاملة لجميع نواحي الحياة قال تعالى: (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

ومن هنا تكون فضائل الأخلاق ومكارمها داخلة في إطار الدين وركناً أساسياً من أركان العبادة. إن الأوامر التي وردت في الكتاب والسنة وتعلقت بالصلاة والصيام وغيرها من العبادات، لا تنفصل عن الأوامر التي تعلقت بالصدق والعدل، ولا بد من تعظيم شعائر وشرائع الله فيها جميعاً.

فليس في الإسلام انفصال بين الكلمة والسلوك العملي للأخلاق والصلة بين العبادة والأخلاق جد عميقة، فالعبادة وسيلة لتكوين الخلق والأخلاق مستمدة من العبادة وفي الحديث: «ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق وإن صاحب حسن الخلق ليلعب به درجة صاحب الصوم والصلاة» رواه الترمذي.

والعبادة هي الأسلوب العلمي والوسيلة الأولى للتربية الخلقية، فالصلاة: تربي الإنسان خلقياً وعقلياً، فهي تربط الإنسان بالله، كما أنها تقوى إرادة الإنسان وتعوده على ضبط النفس والمثابرة يقول سبحانه: "إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ" سورة العنكبوت: ٤٥.

وكان من دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم في افتتاح الصلاة: "اللهم أهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت وأصرف عني سوء الأخلاق لا يصرف سيئها إلا أنت".

كما أن تأدية الصلاة في أوقاتها تعلم أخلاقيات النظام والدقة في حفظ المواعيد، حتى إذا شب الطفل على إقامة الصلاة مع المحافظة عليها تعود الإقبال على العمل في الوقت المناسب والمبادرة إلى انتهاز الفرصة قبل ضياعها وابتعد عن التثاقل وامتنع عن الكسل.

والصوم: تربية خلقية على ضبط النفس ومكافحة الشهوات وتقوية الإرادة وحصول التقوى. "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" سورة البقرة: ١٨٣.

والزكاة تربية روحية وخلقية على مكافحة الأنانية والشح البخل والإفراط وتطهير المال: "خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا" التوبة: ١٠٣.

وهكذا فالأخلاق في الإسلام تنتقل بالإنسان من مجال العقيدة إلى مجال العبادات والمعاملات والعلاقات، فهناك أخلاق تتعلق بصلة الفرد بنفسه كالحياء والإتقان والصبر، ومنها ما يتعلق بصلة الإنسان بخالقه كالطاعة والتعظيم والشكر والتواضع وعدم الاستكبار، ومنها ما يتعلق بصلة الفرد بالآخرين كالإحسان وأداء الواجب وحسن العشرة والتعاون على البر والتقوى والعدل والأمانة... الخ. ومنها ما يتعلق بصلة الإنسان بالأشياء والكائنات الأخرى من البيئة، كالحرص على نظافة البيئة والحفاظ عليها والرفق بالحيوان.

(إن دائرة الأخلاق في الإسلام من السعة بحيث تغطي شؤون الحياة كلها، فهي ذات صلة بالعقيدة والعبادة والمعاملات ومختلف العلاقات علاقة الفرد بنفسه وبربه وبالأشخاص والأشياء).^٦

فالأمانة - على سبيل المثال- من الفضائل الأخلاقية التي دعا إليها الإسلام^٧، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} النساء: ٥٨. وهي خلق باعث على إتقان الأعمال والجودة والتميز، وهي أعلى معايير التطور والتقدم في مختلف ميادين الحياة والعمل.

فالعبادات في الإسلام لعصمة وتزكية الجانب الروحي في الإنسان من الضلال واتباع الهوى، والأخلاق هي السياج الحصين لتنمية الجانب المادي فيه، واللازم لتعامله مع البيئة من حوله. وهكذا نجد حرص المنهج الإسلامي على التلازم بين العبادة والأخلاق.

الباعث الثالث: البيئة والمكون الاجتماعي

الأخلاق وسيلة لتدريب الأفراد على فن التعامل مع السلوك المنظم، من هنا فإن الأخلاق (Ethics) وليدة ثقافة المجتمع، التي تعتبر بدورها ناتج البناء الاجتماعي^٨.

وإن التأمل العميق يبين أن الأخلاق البيئية بما تمثل من موروث أخلاقي مقدس تفرض سيطرتها على الإنسان وحرية في الاختيار وتحدد سقف اختياراته إلى ابعده الحدود، بمعنى انه

⁶ - ايد فرغوش وآخرون، الأخلاق في الإسلام (الأردن، دار المناهج للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦م

⁷ - عبد الودود مكرم، الأصول التربوية لبناء الشخصية المسلمة، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٦)، ص ص ٢٣٥ - ٢٣٨

⁸ - ليس المقصود هنا ما أدخله أميل دوركلم الذي أرجعت الأخلاق إلى العادات الاجتماعية على اعتبار أن الأحكام الأخلاقية هي أحكام تركيبية، أي لا تستنبط العقاب أو الثواب وليست أحكاماً تأليفية أولية خارجة عن نطاق التركيب الاجتماعي، وبالتالي فإن الحكم الأخلاقي لا يحمل في طياته أي قيمة ذاتية إنما يستمد بعده القيمي من خلال إضفاء المجتمع هذا البعد عليه، أي القيمة الأخلاقية ترتد في نهاية المطاف إلى قيمة اجتماعية.

سوف يكون شاء أم أبي وريثاً لأخلاقيات البيئة الاجتماعية والأسرية التي نشأ فيها لاسيما في الفترة الأولى لنضوجه.

من هنا كان اهتمام الإسلام بالبيئة التي ينشأ فيها الطفل، حيث يولد الإنسان، وتحكمه منظومة من القيم التي أودعها الله في فطرته، وبها بعثت الرسل وأنزلت الكتب قال تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) الروم: ٣٠.

فالإنسان مخلوق لديه استعدادات كامنة تظهر بالتنشئة والاكتساب، بحيث تنمو وتصبح طابعا مميزا للإنسان. فالله سبحانه خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق، جاء في الحديث: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " رواه البخاري .

فعلى مستوى البيت يجب على الآباء تنشئة الأولاد وفق مناهج تربوية إسلامية لإعداد نشء صالح يفهم الإسلام فهماً صحيحاً بعيداً عن الأفكار الشاذة والتي قد تقوده في المستقبل إلى الانحراف أو التطرف والعنف.

وعلى مستوى دور التعليم في كافة المراحل، يجب أن تكون المناهج والمقررات التعليمية والتربوية عناصر مولدة للأخلاق الفاضلة كما يجب تحصين التلاميذ من كافة المفاهيم والأفكار التي تقود إلى الانحراف الخلقي والذي يقود إلى أضرار جسيمة على مستوى المجتمع وعلى مستوى الأمة الإسلامية.

فإذا حُفظَ فكر الفرد على هذه المستويات، تحققت الحياة الآمنة الكريمة القائمة على الأخلاق الرفيعة للأفراد. فعندما يجد الإنسان نفسه في الحياة الاجتماعية فإنه سوف يجد أنماطا مختلفة من السلوك الأخلاقي، إلا أنه بمقدوره تحديد النمط الصحيح الذي يضعه ضمن منظومة أخلاقية معينة تسمو بها ذاته وترتقي بها نفسه حضاريا ومدنيا واجتماعيا وسياسيا واقتصاديا... لأن الأخلاق هي الأساس القيمي لحضارات الشعوب.

والإنسان مع كونه يسير ضمن السياق الأخلاقي الذي فرضه المجتمع إلا أنه في ذلك يمارس حريته واختياره الأخلاقي. لأن تمشي الإنسان مع السائد من النمط الأخلاقي لا يعني بالضرورة عدم قدرته على تغييره بقدر ما يعني قناعته حد ما بهذا الإطار الأخلاقي الذي اقتنع به بتأثير الجو الاجتماعي.

وتأتي قوة الإلزام الخلقى للمجتمع من الجزاءات الاجتماعية و القانونية. فالإسلام شرع أحكاماً لحماية المجتمع من التردى الخلقى الذي يؤدي إلى الهلاك ، وذلك واضح في العقوبات الحدية والتعزيرية.

الباعث الرابع: الضمير (الشعور الأخلاقي)

إن ضمانة الالتزام الأخلاقي الحقيقية هي ما يعرف في علم الأخلاق بالضمير أو الشعور الأخلاقي، مما يعني أن الضمير سوف يكون وازعاً داخلياً نفسياً للإنسان يدفعه نحو احترام اختياراته الأخلاقية وإلزام نفسه بما تمشياً مع الشعور بالمسؤولية والالتزام.

يقول الدكتور محمد الجبر بهذا الصدد ((في الحقيقة إن الضمير هنا يبرز من الناحية النفسية أمام الشخصية كصوت داخلي بصورة عميقة للأخلاقية الخاصة والسيادة في الاختيار الأخلاقي واسترشاداً به يحاكم الإنسان أفعاله باسمه الخاص لا باسم غيره)⁹.

وبناءً على ذلك فإن الشعور الأخلاقي أو الضمير يأخذ على عاتقه مهمة تناغم وانسجام الإنسان مع اختياراته الأخلاقية ليعود قادراً على توجيه نفسه الوجهة التي يريد ممارستها بذلك عمق إرادته ككائن أخلاقي يفعل ما يريد ويختاره طوعاً¹⁰.

⁹ - محمد الجبر، الموجز في مفهومي الأخلاق والدولة عند هيجل، دار المعرفة، دمشق، ١٩٩٤، ص ٣٨.

¹⁰ - عادل العوا، الأخلاق والحضارة، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٩، ص ١٣٤

والأصل أن الضمير يُرجح الخير على الشر ومع ذلك فإنه بحاجة إلى تغذيته بالقيم والأفكار النيرة ومحاسن الخير ومساوى الشر من مؤسسات المجتمع المختلفة. .

ثالثاً: خطوات عملية لتنمية دوافع الالتزام الخلقي

التربية تعنى إحداث تغييرات مقصودة في سلوكيات الإنسان وإكسابه أنماطاً من السلوك السوي الرشيد وتوجيه ذلك الإنسان إلى الحق والجمال والطهر والكمال والصواب في المعتقدات والأقوال والأفعال وفي سائر مناحي الحياة وجميع الأحوال.

ولما كان هذا شأن التربية والمربين فلا عجب أن نرى الإسلام يرفع المشتغلين بالتربية والتعليم أرفع المنازل إذ أن تهذيب النفوس والسلوك الإنساني والتربية الخلقية السليمة هي من أهم أهداف التربية والتعليم في جميع المراحل التعليمية. حيث يحتاج الشباب خاصة إلى هذا النوع من التربية ليكون صالحاً.

من هنا فإن الدراسة توصي بتدريس مادة الأخلاق لمختلف المراحل التعليمية في المملكة. وتدور هذه المادة حول المبادئ الخلقية السامية والصفات الفاضلة بغرض غرس تلك الصفات في نفوس التلاميذ، وتزويدهم بالقيم والمبادئ العليا منذ أول حياتهم فالأمم لا تحيا إلا بالأخلاق.

ويمكن للمعلم أن يصل إلى هذا الهدف عن طريق تشويق التلاميذ بدرس التهذيب مستعيناً بالقصص الديني النابع من القرآن الكريم ومن سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ومواقفه وكيفية غرسه للأخلاق الفاضلة.

و من أهداف هذه المادة:

١. أن يتعرف المتعلم على نصوص مختارة تتعلق بأصول التعامل اليومي مع الآخرين (آداب السلام، والزيارات، والمجالس) .

٢. أن يتأثر المتعلم بما يتعلمه من محاسن الأخلاق والعادات ويسعى إلى تطبيقها (بر الوالدين، المجالس، اختيار الأصدقاء، الصدق) .
٣. أن يحسن اختيار صحبته من ذوي الصفات الحميدة .
٤. أن يكون المتعلم بما يكتسب من صفات عضوا فعالا نافعا في مجتمعه.
٥. أن يعرف المتعلم معنى المساواة والعمل الجماعي والعطاء واحترام الغير (التواضع، مساعدة الغير، البر، الإيثار، الثواب) .
٦. تعليم التلاميذ آداب الطعام والمحاذة، آداب الزيارة وغيرها من الآداب العامة .. وهي عادات لا بد منها للمتعلم كي يعيش سعيدا في مجتمعه.
٧. ربط دروس التهذيب بين المدرسة والحياة العملية من خلال الاعتماد على المواقف العملية التي يمر فيها التلاميذ داخل المدرسة وخارجها مثل احترام النظام، إتقان العمل، وكرامة العامل المخلص، وحقوق المواطن، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ...
٨. التأكيد على معاني (الحب) كأبرز صفة في الخلق الإسلامي، إذ هو رباط القلوب بين الأفراد والجماعات وبدونه لا يكون خلق ولا إيمان، ففي الحديث الشريف "لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم" رواه مسلم.
٩. شرح النظام الخلقى في الإسلام ليكون ميزانا يميز به الطالب الغث من السمين، فيأخذ النافع ويترك الضار ولا يقلد تقليداً أعمى للشرق أو الغرب .
١٠. تعديل سلوك الطلبة الفردي والجماعي عن طريقين: أ. الإصلاح المباشر بالتوجيه والنصيحة الصادقة المباشرة. ب. الإصلاح غير المباشر ويكون بالقدوة الحسنة في التعامل بين المعلم وطلابه فالدين المعاملة .
١١. بيان أن الخلق الإسلامي قائم على قاعدة (لا ضرر ولا ضرار) أي أن القواعد الخلقية في الإسلام تدور على عدم السماح للمسلم أن يضر نفسه أو أن يصدر عنه الإضرار بالغير إضافة إلى كونها مصدر خير عميم للفرد

والجماعة، فعلى المدرس أن يعي هذا ويوضحه للطلاب في كل خلق يتناوله بالنقد أو القدح ويأتي لهم بالبديل من الأخلاق الفاضلة في الإسلام، وبهذا يكون قد حقق ما يصبو إليه من تهذيب¹¹.

إن تنمية هذه الدوافع لدى الأفراد، أمر لا بد منه لدوام الحياة الاجتماعية وتقدمها من الناحيتين المادية والمعنوية.

فالإنسان -دائماً- بحاجة ماسة إلى نظام خلقي يحقق حاجته الاجتماعية، ويحول دون ميوله ونزعاته الشريرة ويوجهه إلى استخدام قواه في مجالات يعود نفعها عليه وعلى غيره.

إن الإسلام يدرك تمام الإدراك ماذا يحدث لو أهملت المبادئ الأخلاقية في المجتمع، وساد فيه الخيانة والغش، والكذب والسرقعة، وسفك الدماء، والتعدي على الحرمات والحقوق بكل أنواعها، وتلاشت المعاني الإنسانية في علاقات الناس، فلا محبة ولا مودة، ولا نزاهة ولا تعاون، ولا تراحم ولا إخلاص¹².

¹¹ - الهاشمي، عابد توفيق، طرق تدريس التربية الإسلامية، مؤسسة الرسالة - بيروت، 1985، طه، تيسير؛ الأشقر، جمال؛ المصري، محمد؛ حمودة، محمود؛ محفوظ، نبيل، أساليب تدريس التربية الإسلامية، دار الفكر، عمان، 1992، عطا، ابراهيم محمد، طرق تدريس التربية الإسلامية، ط ١٩٨٨ - القاهرة، الحمادي، يوسف، التربية الإسلامية وأساليب تدريسها، دار المريخ ط 1987 م، الرياض.

١٢- القيم الحضارية في رسالة الإسلام، محمد فتحي عثمان، الدار السعودية ط ١٤٠٢ / ١٤٠٣ هـ، ص ٤٢

الخاتمة والنتائج

استهدفت هذه الدراسة بيان أهمية الالتزام الأخلاقي وأثره في رقي الأمم وتحضر المجتمعات. كما أوضحت بواعث الالتزام الأخلاقي في الإسلام وكيفية تنميتها في ظل الظروف الراهنة التي يشهدها العالم من انفتاح وتغيرات مهولة طالت منظومة القيم والأخلاق للأمم والمجتمعات. وقدمت الورقة أربعة بواعث أساسية تتمثل في الإيمان بالله، العبادة والبيئة والمكون الاجتماعي إضافة إلى الضمير أو ما يعرف بالشعور الأخلاقي.

كما قدمت الورقة بعض المقترحات والتوصيات العملية لتنمية دوافع الالتزام الخلقى في المجتمع، وركزت على ضرورة إضافة مادة الأخلاق في مختلف المراحل التعليمية موضحة توصيف المادة وأهدافها ودورها في تنمية الشعور الأخلاقي وإبراز القيم الأخلاقية في المجتمع.